توظيف الأساطير الدينية
ضد العرب والمسلمين

أ.د. محمد بلتاجى *

أدرك زعماء الحركة الصهيونية ودعاتها أنهم لن يستطيعوا تحقيق أحلامهم فى الرجوع إلى أرض فلسطين ، والاستيلاء عليها ، وإنشاء دولتهم فى قلب العالم العربى ، وعلى حساب أرضه وشعوبه ومقدراتهم ، إلا بعد إضعاف العرب (ومناصريهم من المسلمين) وإلحاق الهزائم المتكررة بهم ، حتى يسلّموا بمخططات الصهيونية العالمية ، ويدركهم اليأس من نتيجة أى صراع معها.

وفى سبيل الوصول بالعرب إلى هذا الحد وظفوا كل الإمكانات التى يمكن أن تعمل - على أى نحو - على الوصول بالأمور إلى هذه النتيجة المبتغاة . وقد درسوا الماضى والحاضر جيداً ، كما قدموا دراسات استشراقية تتنبأ بالمستقبل القريب والبعيد وتحمله على التوجه المقصود لخدمة أغراضهم الآنيّة والمستقبلة.

---

* عميد كلية دار العلوم الأسبق ، ورئيس قسم الشريعة الحالى بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

وحين نراجع فى ذلك ما صنعوه - منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادى - فإننا نجد فى وضوح أن مخططاتهم ودراساتهم كانت تسبق ما عند العرب - فيما يقابلها - بنصف قرن على الأقل !

ومن هنا لا نعجب حين نقارن هذا بالنتائج التى توصلوا إليها ، فى مقابل (الخسارات المتتابعة) التى لحقت بالعرب فى نفس الوقت ! حيث كانت الحركة الصهيونية (تعرف) طريقها المرسوم بغاية الدقة جيداً ، وتعمل بكل طريق على الوصول بها إلى نهاياتها المقررة فى أذهان مخططيها ومنظّريها سلفاً ، بل كانت وقائع الصراع (تسبق) على أرض الحقيقة هذه المخططات سلفاً ، فى الوقت الذى كان العرب فيه (على وجه العموم) يدورون فى نطاق (ردود الأفعال التى تسبقهم بعشرات السنين) وحين كانوا يدركون بعض حقائق الصراع ، يكون الوقت غالباً قد فات لاستدراك مصالحهم الفائتة إلى غير رجعة! فهم- على كثرتهم وهوان شأنهم فى الميزان السياسى والدولى - هم القوم الذين (يعرفون بعد فوات الزمان) حيث لا تنفعهم هذه المعرفة لأن السيّاف قد قال كلمته بالفعل [1].

وليس هذا من قبيل (جلد الذات) - كما شاع القول الآن- بل لعله (تنبيه على ما بقى) !

وأمر الصراع العربى الصهيونى طوال القرن الماضى - وحتى الآن مع الأسف الشديد والحزن الدفين - أشبه بما أورده مؤلف الرواية الذائعة (الأب الروحى) ماريو بوزو ، حين حكى عن زعيم المافيا أن أحد أتباعه

---

[1] أشير هنا إلى قول الشاعر الصديق محمد عفيفى مطر :

الحق قد يقال مرّتين :

فمرّة يقوله العرّاف

ومرّة يقوله السيّاف !

كان له مطلب هام عند أحد كبار رجال الأعمال ، وتوسط الزعيم لتحقيقه : فعرض على رجل الأعمال فى اليوم الأول عشرين ألفاً مقابله ، فأبى ، فعرض عيه فى اليوم التالى عشرة آلاف، فأبى وتعجّب ، وفى اليوم الثالث عرض عليه خمسة آلاف فقط ، فأبى وزاد تعجبه ؛ لأنه توهم ، أن المساومة ينبغى أن تتجه إلى الأعلى - لا إلى الأدنى - وفى اليوم الرابع أتى الزعيم بمسدسه حيث صوبه إلى رأس رجل الأعمال وقد أقسم أنه إن لم يجب مطلبه فوراً فسيلهب رأسه بالرصاص قبل أن ينزل مسدسه ! وكان ما أراده الزعيم على الفور ! وحين أراجع تصرفات شارون مع الفلسطينيين (فى إطار العجز العربى العام) أقول : ترى ما الذى بقى من خيارات للعُرْب المساكين ؟ !

وفى هذا السياق نرصد قطاعاً واحداً من عشرات نعرض فيه بإيجاز: كيف استغلت الدعايات الصهيونية ما تملكه من وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية - فى سيطرة شبه مطلقة على الفنون المختلفة من سينما و مسرح وغيرهما ، وعلى معظم وسائل النشر والصحافة والطباعة ومؤسسات التعليم فى الولايات المتحدة (التى تصنع عقل الأمة وثقافتها) فى توظيف بعض الأساطير الدينية فى الكتاب المقدس؛ حيث تعمل هذه الأساطير فى الحاضر والمستقبل ضد العرب والمسلمين ، بحيث ينتهى الأمر باقتناع بعض رءوس الأمة الأمريكية بصحة هذه الأساطير - على أنها حقائق قاطعة لا مفر من تحقيقها ، ومن ثم العمل بكل طريق على تدعيم وصول بعض هذه الرءوس إلى رئاسة الأمة ، ليكون كل منها سنداً لإسرائيل ، يحسب أن نجاته فى الدنيا والآخرة ليس له إلا هذا الطريق الذى يدعمها فيه لتكون أقوى بصورة مطلقة من مجموع كافة

العرف والمسلمين ! تمهيداً لتولى القوة الأمريكية بنفسها إبادة أعداء إسرائيل بقوتها النووية !

وفى سبيل التمهيد لذلك من أجهزة الإعلام الأمريكية ظهرت صورة العربى أو المسلم عموماً فى صورة تجمع بين التخلف والإجرام والإرهاب والتطرف والشهوانية والعدوانية والرغبة فى سفك الدماء ، كذلك أشاعوا أن النمط العربى والمسلم لا يعمل (العقل) كثيراً ، ولا يحكمه التفكير العلمى الموضوعى . . فهو أقرب إلى حيوان تحكمه غرائزه المتخلفة ، وينبغى أن يعامل على هذا الأساس .

وقد ساعدهم على إقرار هذه الصورة أمور عديدة تزخر بها حياة العرب والمسلمين : فى مقدمتها أن النظم السياسية التى تحكمهم يشيع فيها الحكم الدكتاتورى الذى يقهر شعوبها ، ويقل فيها من يعترف لها بحقوق الإنسان السياسية والاجتماعية ، ومن ثم كان سهلاً على الدعاية الصهيونية أن تظهر العرب والمسلمين فى صورة قطعان بشرية متخلفة ، يحكمهم طغاة يُلْغون إرادة شعوبهم ، ويقهرونها، ويستنزفون ثرواتها التى لا تعرف الفارق بين ما تملكه الأمة وما يملكه الحاكم وأسرته !

وقد كان لهذه الصورة أثر عظيم فى تشكيل الوجدان العالمى ضد العرب والمسلمين . وعلى سبيل المثال فإسرائيل نفسها تملك السلاح النووى المدمر منذ عشرات السنين ، وترفض توقيع المعاهدة الدولية بعدم انتشاره ، كما ترفض التفتيش الدولى على منشآتها النووية – والعالم كله يرى ويسمع ولا يعترض، وفى مقدمته أمريكا– أما إذا فكرت دولة عربية أو إسلامية فى أن تلحق بإسرائيل فى ذلك فإنه تتصاعد الدعوات والدعايات– على مستوى العالم كله – تحذر من (القنبلة النووية) (العربية)

أو (الإسلامية) - كما تطلق الدعايات الصهيونية - ولا يتوقف الأمر عند هذا، بل يتجاوزه إلى اعتداء على الأرض العربية أو الإسلامية لوأد المشروع النووى تحت حجة أن التخلف العربى - حكاماً ومحكومين - لن يحسن معه الحصول على سلاح نووى خطير معرّض لإساءة العمل به من جانب هؤلاء المتخلفين ، ويسمع العالم ويسكت على هذا !

ومن أثر هذه الصورة للعربى والمسلم بعامة أنه عند المفاوضات معهم فإنه يُكتفى بإقناع الحاكم دون الشعب ، لأن الدعاية الصهيونية الناجحة - حتى اليوم - تشيع أنه لا إرادة لشعوبهم أو لما فى بلدانهم من مؤسسات ، فمتى أقنعوا الحاكم فليست هناك إرادة أخرى معه (لا شعب ولا مؤسسات) وذلك فى مقابل ما تظهره الدعايات الصهيونية من أن (إسرائيل) هى وحدها من دول المنطقة التى يجرى الحاكم فيها على النمط الديموقراطى الذى يعرفه العالم الغربى ، وهذا يجعل إسرائيل تكسب من وجوه : أهمها أنها تربح احترام الحكومات وشعوب العالم الغربى - دون جيرانها من العرب والمسلمين - ومنها أنها يكون لها وحدها فرصة المناورة وتوزيع الأدوار عند المفاوضة ؛ لأن عندها شعباً وأحزاباً ومؤسسات حرة عديدة - بخلاف العالم العربى والإسلامى الذى يكفى فيه إقناع أو الضغط على الحاكم (وقد رأينا نموذجاً من ضغط إسرائيل والعالم على ياسر عرفات لمنع أى رد فعل فلسطينى على جرائم إسرائيل ، بحجة أنه (ياسر عرفات) لم يقم بما يكفى لمنع كافة ردود الأفعال الفلسطينية . . فى الوقت الذى تكون فيه إسرائيل (بكافة رجالها ومؤسساتها) حرة تماماً فيما تمارسه من إرهاب تجاه الفلسطينيين .

وإذا نظرنا إلى ظروف انتشار اليهود فى أقطار العالم كله - وبخاصة البلدان الغربية - وسيطرتهم على مجالات الثروة المالية والإعلام والفنون بها ، ووجود خطة تاريخية لهم - يعملون على تحقيقها جيلاً بعض جيل - فإننا نستطيع أن نفهم مجموع الظروف التى أتاحت لليهود (على وجه العموم) هذه السيطرة الإعلامية التى يحسنون توظيفها ضد العرب والمسلمين.

هذا فيما يتصل بالماضى والحاضر - أما ما يتصل بدعم هذه السيطرة فى المستقبل فإن اليهود عملوا أيضاً على إحداث رافد جديد يدعم كراهية الغرب للعرب والمسلمين ، وقد حرصوا على أن يتداخل هذا الرافد مع معتقدات بعض الطوائف المسيحية البروتستنتية خاصة فى أمريكا وأوربا ، واستخدموا فيه ما ورد فى (سفر الرؤيا) من (العهد الجديد) عن معركة (هرمجدون) التى زعموا أنها ستقع بين إسرائيل والعرب والمسلمين، فيعود المسيح لإنقاذ إسرائيل ، وإعادة بناء هيكل سليمان محل المسجد الأقصى ، وحينئذ يحكم المسيح العالم ألف عام يتحول اليهود فيها إلى المسيحية [1].

وقد أشاعت الدعايات الصهيونية وأصداؤها فى الغرب أنه قد اقترب أوان هذه المعركة بما لا يجوز معه إلا تدعيم إسرائيل لتتفوق على جميع قوى المسلمين والعرب تمهيداً للنصر الساحق فى (هرمجدون) .

---

[1] انظر مثلاً : معركة آخر الزمان ونبوءة المسيح منقذ إسرائيل ، ومراجعه .

ويربط بعض الباحثين المعاصرين بين (نبوءة هرمجدون) فى الفكر الغربى وعودة (المهدى المنتظر) فى الفكر الإسلامى المقابل (مثلاً : المفاجأة للأستاذ محمد عيسى داود).

ومع كون هذا (أسطورة) لا دليل عليها من أى مصدر دينى صحيح - فإن أربعين مليون أمريكى (بعضهم وصل إلى منصب رئيس أمريكا) يؤمنون بها ، ويعملون ضد العرب والمسلمين بناء عليها.

ويمثل الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان محطة بارزة فى هذا الطريق للهرمجدون ، من المفيد الوقوف عندها بتفحص دقيق - كما يقول الأستاذ محمد السماك- فعندما كان ريجان حاكماً لولاية كاليفورنيا كان من أتباع الصهيونية المسيحية ومن رعاتها ، وبقى على إيمانه هذا بعد انتخابه رئيساً للولايات المتحدة سنة 1980م ، وبعد التجديد له ولاية ثانية سنة 1984م ، وكان إيمانه يحمله على التمسك بأيديولوجية معركة هرمجدون الثورية التى ستقع فى سهل مجدو بين القدس وعكا . ويروى جيمس ميلز الرئيس السابق لمجلس الشيوخ فى ولاية كاليفورنيا فى عدد شهر أغسطس سنة 1985م (من مجلة سان ديجو San Diego Magazine الحادثة التالية : كانت تلك السنة الأولى فى الولاية الثانية من حاكمية ريجان - وكانت السنة الأولى التى ينتخب فيها مليز رئيساً لمجلس شيوخ الولاية - كان الاثنان يجلسان جنباً إلى جنب فى مأدبة أقيمت فى سكرامنتو على شرف ميلز ، وفى أثناء الاحتفال سأل ريجان ميلز بصورة غير متوقعة تماماً إذا كان قرأ الفصلين 38 و 39 من سفر حزقيال Ezekiel ، فأكد ميلز أنه ترعرع فى بيت مؤمن بالكتاب المقدس، وأنه قرأ وناقش المقاطع من حزقيال التى تتحدث عن يأجوج ومأجوج التى تقول طائفة المؤمنين بالتدبيرية أن ذلك يعنى روسيا (عدة مرات) كما قرأ مراجع أخرى عن نهاية الزمن فى الفصلين 16 و 19 من سفر الرؤيا Book of Revelation . فقال ريجان : إن حزقيال رأى فى العهد القديم المذبحة

التى ستدمر عصرنا . ثم تحدث ريجان بتركيز لاهب عن ليبيا لتحولها إلى دولة شيوعية ، وأصر على أن ذلك إشارة إلى أن يوم هرمجدون لم يعد بعيداً . . وعند ذلك بادر ميلز إلى تذكير ريجان بأن حزقيال يقول أيضاً : إن إثيوبيا ستكون أيضاً من بين قوى الشيطان ، وأضاف ميلز : إننى لا أستطيع أن أرى هيلاسيلاسى (أسد يهوذا) يخوض مع زمرة من الدمى حرباً ضد (شعب الله المختار) . . إننى لا أعتقد أن ذلك ممكن .

غير أن ريجان أصرّ بقوله : أنا أعتقد ذلك ، وأظن أنه لا مفر منه، إنه ضرورى لتحقيق النبوءة بأن إثيوبيا ستكون واحدة من الأمم المعادية لله التى تحارب (إسرائيل) . وبعد ثلاث سنوات من هذا الحوار أشار ميلز فى مقالته إلى أن الشيوعيين أسقطوا هيلاسلاسى ، وأن ريجان كان سعيداً بأن يرى ما يبدو أنه تحقيق لنبوءة تتعلق بالمسيح.

كذلك فى العشاء الذى أقيم فى سنة 1971 ، تحدث ريجان عن هرمجدون نووية قادمة .

وقال ميلز إن حديث ريجان بدا كحديث مثير إلى طالب كلية ! حيث قال ريجان: إن جميع النبوءات التى يجب أن تتحقق قبل هرمجدون قد مرّت: ففى الفصل 38 حزقيال أن الله سيأخذ أولاد إسرائيل الوثنيين حيث سيكونون مشتتين ويعودون جميعهم مرة ثانية إلى الأرض الموعودة ، ولقد تحقق ذلك أخيراً بعد ألفى سنة ، ولأول مرة يبدو كل شئ فى مكانه بانتظار معركة هرمجدون والعودة الثانية للمسيح.

وعندها ذكّر ميلز ريجان بأن الشئ الوحيد الذى ينصّ عليه الكتاب المقدس بوضوح هو أن العودة الثانية للمسيح لا يعرف أحد متى ستحدث ،

فرد ريجان بانفعالية المتعصب [1] بصوت عال : إن كل شئ سيأخذ مكانه ، لن يطول الوقت الآن ، إن حزقيال يقول : إن النار والحجارة المشتعلة سوف تمطر على أعداء (شعب الله) ، وأن ذلك يجب أن يعنى أنهم سوف يدمرون بالسلاح النووى [2]. إنهم موجودون الآن ، ولكنهم لم يكونوا موجودين فى الماضى [3]. وتابع ريجان يقول : إن حزقيال يخبرنا أن يأجوج ومأجوج الأمة التى ستقود قوى الظلام الأخرى ضد إسرائيل سوف تأتى من الشمال ؛ إن أساتذة الكتاب المقدس يقولون منذ أجيال إن يأجوج ومأجوج يجب أن تكون روسيا [4].

وفى عام 1983م كشف ريجان عن أهمية الكتاب المقدس فى حياته قائلاً للمذيعين الدينيين " بين دفتى هذا الكتاب فقط توجد جميع الإجابات على جميع المشاكل التى تواجهنا اليوم " [5] وكتب ميلز فى تلك المقالة التى نشرتها مجلة سان دييجو أن ريجان وهو رئيس للولايات المتحدة أظهر بصورة دائمة التزامه بالقيام بواجباته تمشياً مع إرادة الله ، وذلك كأى مؤمن آخر يحتل منصباً عالياً ، وقال ميلز فى المقال:" إن ريجان كان يشعر بهذا الالتزام بصورة أخصّ وهو يعمل على بناء القدرة العسكرية للولايات

---

(1) هكذا يسجل الراوى تعصب ريجان وعصبيته !

(2) ومن هنا لا نعجب من موقف الإدارة الأمريكية من أن إسرائيل تملك مائتى قنبلة نووية موجهة إلى العواصم العربية ، لكنها تشتعل غضباً وتقصف أى مبنى فى أية عاصمة عربية تتهمها بالرغبة فى صنع ما هو أدنى بكثير من هذه القنابل !

(3) انظر : الصهيونية المسيحية للأستاذ محمد السماك ص 73- 76 وكتاب : المفاجأة للأستاذ محمد عيسى داود ص 537- 538.

(4) الصهيونية المسيحية ص 76 وانظر : المفاجأة ص 538 .

(5) هل يقول أعتى (الأصوليين المسلمين) - كما يطلق عليهم الإعلام الغربى - أكثر من هذا عن كتابهم (القرآن) ؟ فتأمل !

المتحدة ولحلفائها " " صحيح أن حزقيال تنبأ بانتصار جيوش إسرائيل وحلفائها فى المعركة الرهيبة ضد قوى الظلام ، ومع ذلك فإن المسيحيين المحافظين مثل رئيسنا لا يسمح لهم التطرف الروحى بأن يأخذوا هذا الانتصار كمسلمات ؛ إن تقوية قوى الحق لتربح هذا الصراع المهم هو فى عيون هؤلاء الرجال عمل يحقق نبوءة الله انسجاماً مع إرادته السامية وذلك حتى يعود المسيح مرة ثانية ليحكم الأرض ألف سنة [1].

ويرسم الذين يؤمنون بعودة المسيح (من أتباع الكنيسة الأمريكية التدبيرية [2] (سيناريو هرمجدون على النحو التالى) : [3]

1- قيام إسرائيل وتجميع اليهود من الشتات.

2- إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.

3- تعرض إسرائيل إلى هجوم كبير من الكفار، يقصدون (المسلمين).

4- قيام دكتاتور أسوأ من هتلر بتزعم القوات المهاجمة ، وخضوع معظم العالم له.

5- وقوع معركة هرمجدون النووية.

6- نجاة المؤمنين بعودة المسيح وحدهم بمعجزة إلهية " بينما يذوب الآخرون فى الحديد المنصهر".

7- نزول المسيح ليحكم الأرض بعدل وسلام لمدة ألف عام حتى تقوم الساعة.

وفى تفاصيل هذا السيناريو أن الكاثوليك وكذلك الأرثوذكس يقفون

---

(1) انظر : المرجعين السابقين .

(2) Indispensationalism بمعنى أن " كل شئ فى الكون مدبر وفق خطة شاملة مبرمجة "

(3) كما يرسمه القس هول ليندس.

فى المعركة إلى جانب المسلمين ! !

ويعلق الأستاذ السماك على ذلك بأن هذا السيناريو كان يمكن أن يكون مجرد خزعبلات دينية أو هلوسات ، ولكن عندما يكون من المؤمنين بها إيماناً شديداً وصادقاً شخصيات مثل الرئيس الأمريكى الأسبق ريجان ووزير دفاعه كسبار وينبرجر وغيرهما من كبار الشخصيات الأمريكية - فإنها تأخذ بعداً خاصاً " وعندما تتولى هذه الشخصيات توزيع نسخ من كتاب هول ليندسى على كل أعضاء البيت الأبيض ، وموظفى البنتاجون ، وقادة الجيوش الأمريكية ، وعلى جميع أعضاء الكونجرس (الشيوخ والنواب) ، وعلى حكام الولايات ، وكل الشخصيات النافذة ؛ عندما يحدث ذلك بهذه العلانية (المجهولة فى الشرق العربى على الأقل) - فإن السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط تصبح مجرد ترجمة لهذا المفهوم الإنجيلى المتهوّد للمسيحية "[1].

وفى هذا الإطار يستطيع المسلم أن يفهم : كيف يقسو قلب الإدارة الأمريكية، ويهون عليها الدم العربى والإسلامى ، ويغلب البرود التام على مشاعر أفرادها وتعليقاتهم على ما يلقاه المواطن الفلسطينى - بصفة يومية- من قتل ، وتشريد ، وهدم ، وتخريب ، وإذلال - لا ينجو منه حتى الأطفال - وتستخدم فيه أشد آلات الحرب ضراوة مما زودت به الإدارات الأمريكية المتتابعة إسرائيل ! ذلك أن التفسير الوحيد له يكمن فى النظرة إلى هذا كله على أنه (بروفات أولية) تمهد لهرمجدون الآتية !

---

(1) انظر المرجعين السابقين . . وبداهة فإن المسلمين نشأ بينهم أيضاً فكر اعتقادى مقابل يعتمد على أحاديث عودة (المهدى المنتظر) ويستخلص منها - ومن آثار أخرى - ما يدل على أن الفئة المنتصرة يقيناً فى معركة آخر الزمان إنما هم المسلمون بزعامة المهدى المنتظر، وأن الله تعالى سيضرب أمريكا (أكبر أنصار إسرائيل) ضربات قدرية قاصمة تلحقها بعاد الأولى . . الخ (انظر: القيامة الصغرى على الأبواب للدكتور فاروق الدسوقى ، ومعركة الوجود بين القرآن والتلمود للدكتور عبدالستار فتح الله).